مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : آذار سنة ١٩٢٧ م الموافق رمضان سنة ١٣٤٥ هـ

تاريخ الزراعة

« في بلاد العالم العربي (١) »

للبلاد التي يتكلم سكانها العربية اليوم ماض أغر ومدنية موطودة الأسس قامت في وجه الدهر فعاركته آلافاً من السنين يوم لم يكن الا هي كوكب يسطع في حلك الجاهلية والوحشية . ومن عربة او جزيرة العرب موطن الساميين الاصلي نزحت أجيال عظيمة وأمم شتى في دهور واغلة في القدم فألقت عصاها في سقي الفراتين فنشأت كلدية وعيلم وآشور ، ومنهم من اكتسح ديار الشام فنشأ الفنيقيون والكنعانيون فليس إذن من الغريب ان يقول العالم مسيو رنجلمان (Ringelmann) « ان جزيرة العرب في التاريخ المترامي الآفاق كالكأس كلما امتلأت سال منها الى الشمال رجال » . وتمدن كلدية أقدم من تمدن مصر ولم ينشأ تمدن مصر في القرون القديمة الا على اثر موجة بشرية امتدت من كلدية الى مصر حاملة معها الحضارة والعرفان ولذا قال مسيو مورغان (Morgan) « أيقنت وانا في وادي النيل ان طلائع المدنية في اوائل عهد المملكة المصرية وردت من كلدية فيكون سقي الفراتين إذن مهد رقي البشر » . وقال المؤرخ الشهير مسبرو (Maspero) « لرسوس المصريين الاقدمين والعرب والفنيقيين والكنعانيين روابط تشد بعضها الى بعض وليس المصريون غير ساميين انفصلوا عن مهد الساميين قبل غيرهم » . ولقد كان من الواجب ان أبدأ خطابي بزراعة

(١) محاضرة ألقاها الأستاذ صاحب الامضاء في ردهة المجمع العلمي بدمشق بمناسبة انتخابه عضواً فيه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أم العراق لولا ان تاريخ التمدن المصري القديم قد استبان قبل تاريخ الحضارة في بلاد الرافدين ولذا أبدأ بمصر على عهد اقدم ممالكها المعروفة اي منذ نحو ٦٠٠٠ سنة الى نحو ٥٠٠ سنة قبل الميلاد . ولا بد لي قبل ذلك من التنويه بان ما ألقيه عليكم أيها السادة ليس سوى رؤوس أقلام لان الموضوع فضفاض يملأ كتاباً برأسه .

الزراعة في عهد المصريين الأقدمين — اشتهرت مصر على عهد الفراعنة بزراعة الحنطة والشعير والفول والبرسيم والكتان والقنب وكثير من البقول كما اشتهرت بغرس الكرمة واشجار الفاكهة . واهم هذه الاشجار مما رسموه على هياكلهم القديمة الرمان والمشمش والزيتون والدراق والتين والنخيل . وورد في التوراة ان العبرانيين بعد خروجهم من مصر اسفوا لفراقهم ما لذ وطاب فيها من الخوخ والبطيخ الاصفر والبصل والثوم . وقال هيرودوتس : « ان المصريين كانوا مكلفين بزرع الذرة البيضاء خاصة وانهم ما كانوا يقيمون لخبز البر وزناً ، اما الفول فما كانوا يألفون زرعه وهم لم يزرعوه الا للاتجار والمقايضة » . وذكر غوستاف اوزه (G. Heuzé) ان المصريين كانوا يزرعون قصب السكر واللوبياء والباميا والقلقاس والخشخاش الذي منه يستخرج الافيون كما انهم كانوا يستخرجون الصمغ العربي من السنط النيلي . ولم يجد علماء الآثار اثراً للمنسوجات القطنية في اقدم ايام مصر لكن بلينيوس يقول ان القطن كان يزرع في مصر العليا ولعل ذلك في ايامه . واشتهرت مصر في نبات النيلوفر والقصب والبردي وكانت ساق البردي تبلغ خمسة امتار احياناً يستعملونها في البناء . وفي صنع أحذية للكهان وفي غير ذلك . ومن الياف سوق البردي كانوا يصنعون الورق .

وكانوا يربون البقر والمعزى والحمر والخنازير . اما الخيل والابل فما كان لها اثر في اقدم ايامهم بخلاف التمساح والكركدن ويظهر ان موجة العرب الرعاة الذين يدعون هيقسوس سافت الخيل الى مصر في نحو القرن العشرين قبل الميلاد ، ولذا بدأت آثار الخيل تظهر في السلالة الثامنة عشرة . ولم تألف الخيل إقليم مصر بادئ بدء فكانت تمس الحاجة الى نقلها من الشام من حين الى آخر . لكنه اتى بعد ذلك زمن كان لتربية الخيل فيه شأن كبير حتى ان الملك سليمان كان في كل سنة يبتاع من مصر عدداً عظيماً من الخيل يستخدمها في قضاء حاجاته او يبيعها من ملوك الحثيين وغيرهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكانوا يعتقدون ان الإله اوزيريس هو الذي علمهم صنع ادوات الحرث وتجهيز التربة وغرس الكرمة والأشجار المثمرة وحصد الذرة والشعير وان امرأته ايزيسا علمتهم الطحن والخبز والنسج وكانوا قبل ذلك نصف وحشيين يأكلون لحم الانسان ويقتاتون من ثمار الارض فالاله اوزيريس هو رب المعول والمحراث عندهم .

والمصريون الأقدمون من أقدر الشعوب على معالجة الارض العطشة بالإسقاء والارض المستنقع بصرف النقع عنها . ولهم حنكة في صنع الأسداد والحواجز لان ارضهم فحلة لا تنبت ولا تكون مغلالاً الا اذا رويت بماء النيل .

وكان القائمون باعمال الحرث والزرع العبيد والحمير والبقر ثم الخيل بعد حين . فالعبيد كانوا كثاراً رجالاً ونساء وجلهم أسرى يساعون مع الارض ويشرون ولهم حصة من المحاصيل كأنهم شركاء بالمزارعة ولكن مقسورون على العمل في الارض . ومن الغريب ان المصريين الأقدمين كانوا يكرهون الحمر ويضطهدونها معتقدين ان الشر متجسم فيها مع انها من انفع الحيوانات الدواجن . اما الابقار فكانت مقدسة فلا تذبح ولا تؤكل ولكم احتدموا غيظاً من اليونانيين عقب استيلائهم على مصر اذ شرعوا يذبحون الأبقار ويغتذون من لحومها . وقد كف المصريون عندها عن استعمال السكاكين خشية ان يكون اليونانيون عالجوا بها ذبح البقر .

ومحاريثهم ومناجلهم شبيهة بامثالها اليوم . وكانوا يحصدون بالمناجل السبل وحده دون سوق الزرع لا سيما اذا كان الزرع متآصراً او مستأسداً . ويدرسون الحصائد دوساً بارجل البقر الا الذرة فانهم كانوا ينزعون حبها بآلة لها أسنان كالمشط . وقيل انهم عرفوا النورج واستعملوه لكنه لم يعثر على رسوم قديمة لنم عنه . ومما لاريب فيه انهم عرفوا الخميرة واستعملوها منذ أقدم ايامهم .

ومساكن الفلاحين الاولى بيوت صغيرة من قصب . ثم بنوا بالخشب فبالطين والآجر . ولا شبابيك لبيوتهم غالباً وان فتحوا شبابيك فبالسقف لجريان الهواء . وكانوا يبنون البيوت قريبة بعضها من بعض فتتكون منها قرى مقسمة الى حارات . وندر بناؤهم بيوتاً منعزلة .

اما من حيث الضرائب فكانت تجبى غلةً . وجاء في التوراة ما يستنتج منه أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يوسف أوجد ديواناً للتموين وآخر للمساحة والإحصاء وانه جبى الغلات ووضعها لا سيما الحنطة في مخازن عظيمة ثم فرقها في فقراء المصريين في سني المجاعة . وفي آخر سني الجدب جبى يوسف من المصريين خمس غلاتهم حتى كأن مصر صارت كلها ملكاً للدولة . وهو اول من اوجد مفتشين للزراعة ولبيت المال مع كل ما يتعلق بهم من نظار وجباة وكتاب وذلك لمعرفة مساحة المستغلات وجباية حصة الحكومة من المحاصيل على وجه الضبط .

و يفيد قبل انهاء هذه الخلاصة في زراعة المصريين الأقدمين ان اذكر اقوال بعض العلماء فيما كان يعرفه هذا الشعب العريق في المدنية من العلوم والمعارف . قال هيرودوتس ان الآلهة والعبادة والشرائع والعلوم والصناعات والتعاليم الاجتماعية كلها ولدت على شاطئ النيل . وجاء في الأساطير ان النبي موسى درس علومه في مصر وان ابراهيم هبط مصر لدرس مدنيتها . وقال رنجلمان ان مصر مهد العلوم والفنون وانه يعزى اختراع الحساب والهندسة الى المصريين . و يظن اسحق نيوتن (Newton) ان الآلهة توت وزير سيزوستريس هو الذي اوجد الهندسة لمعرفة حدود الارض واقسامها كلما عادت المياه الى مجاريها بعد فيضان النيل . وعلى ذكر ذلك اقول انه لا يزال اقباط اليوم على دربة عجيبة في معرفة مساحة الارضين بالقصبة وأجزائها دون استعمال اداة هندسية مهما تكن الارض منعرجة . وذكر اقليدس وغيره من علماء يونان غير مرة ان مصر مهد الهندسة . وقال ارسطوطاليس في فلسفته (ماوراء الطبيعة) « ان الرياضيات نشأت في مصر لان كهنتهم كانوا في معزل عن شواغل الحياة اليومية فأمكنهم الانقطاع الى الدرس » .

الزراعة في العراق — قلت ان مدنية سقي الفراتين اقدم عهداً من مدنية مصر لكن ما استبان منها في عهد كلدية وعيلم واشور لا يمتد الى ابعد من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، فكلامنا إذن يختص بزراعة أقوام العراق منذ ذلك العهد الى استيلاء الفرس سنة ٥٣٩ قبل الميلاد . وقلت ان سكان العراق الأصليين نزحوا اليها من جنوبي جزيرة العرب وكانوا يتكلمون لغة قريبة من الآرامية والفنيقية . وقد وجد في عيلم آثار ترجع الى ما قبل التاريخ اي الى عصري الحجر فالنحاس .

وكان الكلدانيون يعتقدون بوجود غول او آلهة اسمه نمرود او اوانس (Oannès)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شبيه بآلهة المصريين اوزيريس ، منه يستمدون العلوم والآداب والصناعات والهندسة والزرع والحصاد وتشييد الأبنية والمعابد . اما الفلاحة فلها آلهة خاص اسمه نينيب (Ninib) . ويعتقدون بان البشر ما كانوا يعملون بما يوحيه نمرود اليهم ولذا انتقمت الآلهة فأوجدوا الطوفان . وقد نشر مستر سميث (Smith) صفائح وجدت في نينوى وردت فيها قصة الطوفان وفلك نوح .

وكان سكان كلدية وعيلم وآشور يعرفون كثيراً من النباتات التي تزدرع ، و يرى كثير من علماء النبات ان آسيا الغربية وخصوصاً الشام والعراق وفارس تعد المهد الاصلي لعدد عظيم من اهم النباتات واعظمها فائدة للانسان كالحنطة والشعير وغيرهما ولقد نشرت منذ سنتين مقالاً في هذا الصدد ذكرت فيه انه عثر على الحنطة البرية جنوبي الشام منذ عهد قريب وانني التقطت منها كثيراً من السنابل . ومما كان يزرع في العراق الفول والعدس والحمص والحلبة والجلبان والخشخاش والكتان والسمسم والخروع والقرطم والفوة والخس والهندبا والاسباناخ والرجلة وقرة العين والجزر والبصل والثوم والباذنجان والباميا والبطيخ . وفي آثارهم رسوم شبيهة بالدلب والسنط والسرو والطرفاء . واشتهر من الاشجار والشجيرات المثمرة الخوخ والمشمش والكرز والاوز والتفاح والرمان والتين والكمثرى والزيتون والكباد والفستق والنخيل . قال توفراستس انهم كانوا يغرسون الكباد ويسمونه تفاح ميديا او تفاح فارس . وقال استرابون « يسد النخيل كل حاجات الأهلين لانه يصنع منه نوع من الخبز ونبيذ وخل وعسل ورب ومائة نوع من الانسجة » هذا وكل جزء من النخل له فائدة فقد ذكرت في كتاب (الاشجار والانجم المثمرة) انهم يصنعون حصراً وسلالاً من وريقات الخوص وأسرة من الجريد ومكانس من مدقوق قواعد الجريد وحبالاً من الليف المحيط بهذه القواعد ثم من أعواد العراجين بعد دقها الخ .

ويعرف سكان كلدية وعيلم بسكونهم وتنكبهم عن الشر وحبهم للفلاحة . وهم أوجدوا مدنيتهم من أساسها . اما الآشوريون فانهم اقتبسوا كل معارفهم عن الكلدانيين الا صنعة الحروب فلهم فيها حذق ودهاء وكانوا غزاة سفكة لا يرحمون احداً .

وكان أقوام العراق في تلك العصور يعدون الارض ملكاً للآلهة ولمن يمثلهم اي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للملوك . وهؤلاء يهبونها لارباب الوجاهة وأفراد الشعب فيستغلونها او يبيعونها او يقسمونها بين ورثتهم . ومنهم من كانوا يستغلون الارض مباشرة وآخرون بواسطة عبيد مزارعين . وكانت ضريبة الارض تجبى غلة فتوضع في أنابير شيدت في انحاء البلاد يقوم عليها جيش من عمال بيت المال . وكانوا يخطون بالقلم المسماري علومهم واساطيرهم وما يهمهم حفظه في صفائح من طين تملأ وترسل الى الخزافين فيشوونها فتصلب كل الصلابة اذ منها ما مر عليها ٤٠ الى ٥٠ قرناً وهي لا تزال جلية تسهل قراءة ما كتب عليها . قال المؤرخ مسبرو « وكان لكل ارض صفيحة من خزف دوّنت فيها مساحتها واسم صاحبها واسم اصحاب الارضين المجاورة لها وما فيها من القنوات والأنهار والبيوت الخ . وكثيراً ما كانوا يضيفون الى الصفيحة مخططاً يستبين به مايشكل ادراك موضعه . وليس من الصعب بعدما ذكر ان يكون في مستطاع رجال بيت المال في كلدية وضع ضريبة الارض على أسس وطيدة » . والكلدانيون من امهر الأمم القديمة بمسح الارض مهما تكن معوجة فلقد كانوا يرسمون مخططات للزارع والمدن وبلغ من جرأتهم ان حاولوا رسم مخطط للكرة الأرضية او لما كانوا يعرفون منها .

وذاعت شهرة الشرائع التي سنها حمورابي وهي ترجع الى نحو ٢٢٠٠ سنة قبل الميلاد . ومن ابحاثها المزارعة والاسقاء ورعي الماشية وقلب المحاقل مبافل واستيجار الرجال والحيوانات وادوات الزراعة وعقاب من يعذبون الرجال والماشية واجور العمال وشراء العبيد وحقوق السادة والعبيد المتقابلة والحقوق التجارية الخ وقد ذُكرت كل هذه المواضيع العمرانية المهمة بعدل وحكمة . وكانوا يحفظون هذه الشرائع وامثالها في خزانات مقدسة يتعاهدها الكهان اي علماء ذلك الزمان . ويغلب على الظن ان اليونانيين اقتبسوا منها خلاصة ما تركوه للأعقاب في هذه المواضيع .

ومواشي الكلدانيين الأبقار المعروفة والأبقار ذات السنام والخيل والحمير . اما محاريثهم فشبيهة بمحاريث المصريين والمحاريث البلدية في هذه الأيام . وكذا آلات الحصاد والدراس .

واتى ملوك الكلدانيين باعمال عظيمة في إسقاء الارض ففتحوا الانهار وشقوا منها الجداول تتغلغل مياهها في الارض يمنة ويسرة . وتفاخروا باعمالهم هذه وأطلقوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اسمهم على الأنهار كنهر حمرب الشهير . ويكفي اليوم ان تعاد هذه الانهار والجداول الى سالف عهدها حتى يصبح العراق من اغنى اقطار العالم . وكانوا يستخدمون الاسرى في حفر مجاري الماء وانشاء السدود والقناطر . وقد لبثت كل القني والمجاري لتعاهد وينتفع بها ايام الخلافات العربية الى ان اجتاحت البلاد جيوش التتر والمغول الوحشية .

الزراعة القديمة في الشام واليمن — هبط الفنيقيون سواحل الشام الوسطى والشمالية آتين من شرقي جزيرة العرب فأوجدوا في صور وصيدا وبيروت وجبيل وغيرها مدنية ذاع صيتها بما اكتشف العلماء من الآثار في تلك الاماكن الشامية . وكان الفنيقيون من امهر الامم في ركوب البحر والاتجار مع من جاورهم من الأجيال ولم يشتهروا بالحرث والزرع الا في شمالي افريقية كما سيجيء . لكنهم زرعوا الاماكن التي حلوا بها ورووا ما امكن إرواؤه منها فكانت سهول صور وصيدا الخصبة الريا بالماء تنتج اصناف الحبوب والثمار . وحذق الفنيقيون غرس الزيتون والكرم وصنع الخمرة حتى ان اليونانيين والرومانيين كانوا يرغبون في انبذتهم . وعثر علماء الآثار في ضواحي صور على آلات زراعية اتم واقوى من الآلات الزراعية التي كان يعرفها الشعوب المجاورون لهم . وجاء في مجلة العلوم الافرنسية « ان اهم الاعمال الزراعية التي اشتهر الفنيقيون بها هو تأليفهم في قرطاجنة كتباً قيمة تبحث في ما اتصل بهم من نتائج التجارب الزراعية لانهم كانوا يضعون نصب اعينهم استغلال الارض للحصول على غلات يتجرون بها . واشهر كتبهم كتاب الجنرال ماغون (Magon) الفه في القرن الخامس قبل الميلاد وسماه (الاقتصاد الزراعي) وهو ٢٨ جزءاً ولذا سمي ماغون اب الزراعة . «والف هاميلقار (Hamilear) ابن ماغون كتباً زراعية كأبيه . وقد نقل اليونان والرومان هذه الكتب الى لغتهم ورجعوا اليها في ابحاثهم فكانت لهم مقتبس لهم . ولا شك ان الفنيقيين لم يتوصلوا الى ذكر ما دونوه في الزراعة الا بعد ان مارسوا الاعمال الزراعية قروناً عديدة وكتبهم هذه تدل على علو كعبهم في الفلاحة على ما فيها من ابحاث بعيدة عن الاسلوب اليقيني » .

واذا انتقلنا في بحثنا الى ذكر العبرانيين او الاسرائيليين بعد ان نزحوا من مصر واستوطنوا جنوبي الشام قبل الميلاد ببضعة عشر قرناً نرى انهم كانوا ارباب زراعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يسيرون على ما اقتبسوه من مصر ابان مدنيتها الزاهرة . وقد كثر في جنوبي الشام على عهدهم غرس التين والزيتون واللوز والرمان والكرمة كما كثرت غلات الحنطة والشعير والقطاني وعدد من البقول . و يبالغ بعض المؤلفين من يهود او ممن يتعصبون لهم او ينقلون عنهم فيجعلون فلسطين جنات تجري من تحتها الأنهار لا سيما في عهد الملك داود حتى ان احدهم جعل مساحة الارض المكسوة باشجار الفاكهة في تلك الايام عشرة ملايين دونم تقريباً وهو وهم لا يقره العقل بعد محاكمة تاريخية فلسفية على أسلوب يقيني . والحقيقة التي عليها اكثر المؤرخين هي ان الاسرائيليين مع اشتغالهم في الارض قليلاً لم يوجدوا في الزراعة شيئاً يذكر وكذا في العلوم التي كانت معروفة في تلك العصور .

وسكن الشام اجيال كثيرة غير من ذكرناهم منهم المتوغلون في القدم كالعمو واللودانو ، وآخرون اقرب عهداً كالحثيين والاراميين والعموريين وغيرهم وقد اتت الدهور على آثارهم فلم يستطع تدوين حال الفلاحة في ايامهم .

ومن اقدم الامم التي حلت الشام وشادت فيها الممالك قبل الاسلام اجدادنا العرب . قال رئيسنا العلامة صاحب خطط الشام : « ان العرب في الشام منذ زهاء ٢٥٠٠ سنة واوصله بعضهم الى نحو ٤٠٠٠ سنة » واشهر دولهم فيها دولة النبط والغساسنة والتنوخيين والايطوريين ناهيك عن القبائل العديدة التي كانت تضرب في انحاء البلاد . فالنبطيون في البتراء وان لم يشتهروا بالفلاحة فقد الفوا قبل اليونانيين والرومانيين كتاباً زراعياً غاية في الجودة نقله احمد بن علي بن المختار المعروف بابن وحشية وقد صرح علماء الغرب بان هذا الكتاب هو الصلة الوحيدة بين زراعة الممالك الآسيوية القديمة وبين الزراعة الحديثة . وقال العالم الفرنسي رنجلمان « ان اول من دوّن الأعمال الزراعية التي البستها التجارب حلة فن ثابت هم الانباط » . وقال : « ان هذا الكتاب معملة زراعية ثمينة » . وقد طالعته في خزانة بايزيد في القسطنطينية فألفيته سفراً قيماً لم يكتف فيه ابن وحشية بذكر ما يحتويه الاصل بل اضاف اليه كثيراً من الأبحاث الزراعية في ايامه . واهم ابحاثه استنباط المياه وهندستها وحفر الآبار واطلاع الماء من عمق قريب واختلاف طباع المياه واصلاح الضياع وتغييرات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأهوية ودلائل مجيء المطر والأوقات الموافقة لضروب الأعمال والاراضي المحتاجة الى الإصلاح وغرس الزيتون وبعض الأشجار المثمرة وزرع الحبوب من حنطة وشعير وغيرهما وزرع كثير من البقول ومن النباتات الزيتية والليفية كالجزر والبصل والكراث والسمسم والكتان والخشخاش وزرع عدد من نباتات الأزهار والرياحين واشجار الزينة كالبنفسج والسوسن والنيلوفر والنرجس والأقحوان والياسمين والنسرين والآذريون والبهار والخزام والدردار والأزادرخت .

ان من يجوب منكم ايها السادة مناطق الشام الشمالية الشرقية لا سيما ارباض سلمية والحمراء ومنبج يشاهد في تجواله قنوات عديدة لنساب مياهها مع انحدار الارض حتى تبلغ سطحها فتسقي ما اطمأن منها ، و يرى ان كثيراً من القني لا يزال مدثوراً يلزم كريه وارجاعه الى سالف عهده فهذه القني القديمة يعزي بعضهم فتحها الى الفرس على اثر افتتاحهم الشام . ولا ريب ان للرومانيين ثم لأجدادنا العرب يداً في تزييد عددها لان انحاء سلمية كانت بساتين وغياضاً زاهرة في عهد الممالك العربية .

ومما يلفت النظر جنوبيّ حمص بحيرة قطينة او بحيرة قدس والسد الذي قام في وجه العاصي لتحويل قسم من مياهه الى المدينة و بساتينها . فقد ذكر الأب لويس شيخو في مجلة المشرق انه ورد في تلمودي اورشليم و بابل ان الامبراطور ديوكلسيان (٢٨٤ — ٣٠٥ م) هو الذي سعى بحفر البحيرة واقامة السد . لكنه يرجح ان البحيرة اقدم منه عهداً . وجاء في تقويم البلدان إن سد بحيرة قدس هو من عهد الاسكندر الا انه لم يقم صاحبه دليلاً على ذلك . وللأمير جعفر الحسني مدير متحفنا رأي وجيه في هذا الصدد وهو انه اذا كان العلماء لم يستقر رأيهم على نسبة السد الى الرومانيين او اليونانيين مع ما يكون في آثار هذين الشعبين من الخصائص التي لا تدع مجالاً للشك في نسبة آثارهما اليهما ، فلعل هذا السد من صنع الحثيين لا سيما وحمص كانت بيئة حثية محضة .

هذا في الشام . ولنطفر الى قطر عربي عريق في عروبته بعيد عن الشام كل البعد وهو القطر اليماني حيث كان العرب الأقدمون يهتمون بشؤون الزراعة فلقد ذكر بلينيوس ان المعينيين يقيمون في بلاد كثيرة الغاب والأغراس . وقال استرابون ان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اخصب بلاد العرب هي بلاد سبأ وقال ان من محصولاتها المرّ والبخور والقرنفل والبلسم وسائر العطريات فضلاً عن النخيل والغاب . وقال الهمداني ان في وادي ظهر في اليمن نحو عشرين نوعاً من الأعناب وفيه من أصناف الأجاص الفارسي والحميري والتين والكمثرى ما لا مثيل له في الأرض . وقال جرجي زيدان « ان من يجوب بلاد العرب حتى يأتي حيث كانت مدائن معين وسبأ وحمير وغيرها من الدول القديمة لا يرى اليوم الا رمالاً محرقة وجبالاً جرداء والحقيقة ان تلك البلاد كانت على عهد ذلك التمدن بساتين وغياضاً فيها الأغراس من الأشجار وفيها الرياحين والحنطة والازهار » .

و يوجد نقوش كثيرة في الحجر تدل على اشتغال عمالقة اليمن بحرث الارض وآثار اسداد ضخمة شادوها لجمع الأمطار ومعالجة الارض بالاسقاء . واضخم هذه الاسداد سد العَرِم او سد مأرب الشهير و يليه اسداد قصعان وربوان وشحران وعباد وغيرها .

الزراعة في عهد العرب بعد الاسلام — العدل والأمن هما أساس الملك ودعامة العمران فبهما استطاع اجدادنا العرب ان يدوّخوا الممالك القديمة و يؤسسوا فيها مدنية عربية اسلامية سطعت انوارها يوم كان العالم سادراً في حلك الجهل وغياهب الهمجية ولئن عجبتم فاعجبوا لشعب بدوي جاهل يغزو ممالك عريقة في الملك فما هي الا رمشة عين في حياة الأمم واذا بهذا الشعب يحترم اديان المغلوبين وعاداتهم و يؤمن الخائف و ينصر المظلوم على الظالم و يقر الناس على اموالهم وزرعهم وماشيتهم و يسوس الجميع بعدل وحكمة وحنكة و يترجم و يؤلف و يتعلم و يعلم و يسبق من كانوا قبله ومن عاشوا معه . حقاً ان الانسان اذا اعمل الفكر في هذا الشعب العربي اكبره .

وعَّ العرب علومهم الأصلية في عهد الأمويين والعباسيين ونقلوا الى العربية علوم اليونان والفرس والهنود والكلدان والسريان والنبط واوجدوا مدنية شهد لهم اعداؤهم بعظمتها فما ذا كان حظ الزراعة من ذلك ؟ هذا ما توخيت ان أوجزه في هذه المقالة . ان اول ما يهم معرفته حالة الارض وطرق تملكها وماوضع العرب عليها من الضرائب وما سنوه من الشرائع الزراعية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان المجاهدون العرب في اول الفتوح الاسلامية يودون لو جعلوا الارضين التي تقع بايديهم غنيمة تقسم بينهم كسائر الغنائم لكن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حرم على المسلمين كما قال المتر يزي اقتناء الضياع والمزارع واجرى عليهم الرواتب والأرزاق من بيت المال ولم يستثن عيالهم وعبيدهم ومواليهم . وذكر ابن عساكر ان اهل الذمة اذا اسلم احد منهم صارت داره وما كان يملكه من الارض الى اصحابه من اهل القرية وهم يؤدون خراجها . ومن السهل ادراك الغرض من هذه السياسة القويمة التي سار عليها الخلفاء الراشدون فلقد كان عدد المسلمين قليلاً وكانت البلاد التي دخلت في حوزتهم مترامية الاطراف وكانوا الزموا انفسهم فريضة الجهاد . ولهذا كان من الواجب الا تلهيهم الارض عن القتال في سبيل الغاية المحمودة التي انتدبوا لها وفضلوا الأقوام بها . أفلسنا نرى اليوم كثيراً من الحكومات الاوربية تمنع زواج الضباط الى حد محدود وتكف عن ارسال الجنود والضباط الى المستعمرات الا بارادتهم خوفاً من ان يلهيهم الحنين الى ارضهم ومساكنهم واولادهم عن القيام بما تستلزمه الجندية من الكد والتعب ومواجهة الاخطار . وثمة غرض ثان حمل الخلفاء الراشدين على اتباع السياسة المذكورة وهو كما قال ابن عساكر ان يبقى اهل الذمة وارضهم مصدراً للمال الذي يحتاج اليه المسلمون في اتمام الجهاد دون ان يستأثر بخراجها بعض المسلمين دون بعض اذا تملك بعضهم الارض . فيتضح مما ذكر ان العرب في صدر الاسلام لم يمتنعوا عن الزراعة واقتناء المزارع احتقاراً للأكارين ومهنتهم كما ذكر بعض الشعوبيين ومتعصبي الفرنجة بل كان لأمتهم في ذلك غرض اسمى . ولئن امتنع العرب انفسهم عن الاشتغال بالزراعة في اول عهد الاسلام فلقد كانوا عليمين بان هذه الصناعة هي ركن ثروة البلاد ومصدر الغنى لبيت المال ولذلك عطفوا على الفلاحين وابقوا دواوين الخراج اي ضريبة الارض على ما كانت عليه ايام الروم والفرس وكانوا ارفق ممن تقدمهم في جباية الخراج وعدلوا فيه على مقتضى الأحوال في مختلف البلاد التي دانت لهم وخضعت لسلطانهم . وسواء أكان الخراج بالمقاسمة او بالمساحة « اي بنسبة الغلات او ضريبة مقطوعة على المساحة » فما كان يزيد على عشر المحاصيل مطلقاً على حين نصت شرائع الدولة التركية على استيفاء ثمن المحاصيل عدا ضريبة الارض . وكان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غير المسلمين مُلزمين بالجزية وهي ضريبة لم يحدثها العرب بل كانت الأمم القديمة تعرفها من اغريق ورومان وفرس وهي توضع لقاء حماية اهل الذمة من التعدي عليهم والتصدي لهم لانهم ما كانوا ملزمين بالقتال للذب عن حياضهم . فالجزية إذن شبيهة بما يسمى « بدل العسكرية » ايام الترك اي الضريبة التي كان يجمعها الترك من المسلمين وغير المسلمين للخلاص من الجندية . ولم يضع العرب الجزية على النساء والصبيان والرهبان واهل العاهات . وكان مقدارها مختلفاً باختلاف درجات الناس وقلما كانت ثقيلة الوطئة الا في حالات خاصة كأن تمس الحاجة الى المال لقتال عدو او لاغراض أخرى ذات بال .

ولم يدم ابتعاد العرب عن التصرف بالارض طويلاً فان معاوية ايام كان عاملاً على الشام رأى ان جانباً كبيراً من القرى كان ملكاً لحكام الروم وقوادهم فلما قتل بعضهم وفر بعض لبثت تلك القرى بلا صاحب فكتب معاوية الى عثمان ان ما اجراه عليه من الرزق لا يقوم بمؤنة رسل الروم ووفودهم ورسل امراء الجند وغيرهم وسأله ان يقطعه تلك الضياع والمزارع لانها لا صاحب لها فأجابه عثمان الى طلبه . وهكذا أخذ العرب يقتنون الضياع إما بانقطاع ما ليس لها مالك او بشراء التي أقرت لاصحابها من اهل الذمة . والارض التي كانوا يقتطعونها هي الارض الموات والتي نسميها اليوم محلولة او خالية اي التي فر اصحابها او قُتلوا او كانت مستنقعاً او معطلة مدة طويلة لسبب من الاسباب . وظلت ملكية الارض للامام والناس يستغلونها اي لهم حق التصرف بها . ولبثت هذه القاعدة في انحاء بلاد العرب الى اليوم الا في مصر حيث أصبحت الارض ملكاً صرفاً للمصريين من ايام الخديوي سعيد باشا وهذه هي الحال في بلاد اوربا في ايامنا هذه . وبعد ان اقتطع المسلمون الارض وابتاعوها أخذوا يدفعون العشر عنها اي عشر غلاتها كما في الخراج .

وما عمّ العرب عُقب اقتنائهم المزارع واشتغالهم بالارض حتى تغلبوا على عناصر المزارعين او الأكرة الأصليين كما تغلبت اللغة العربية على لغتهم كاليونانية والسريانية والارامية والفارسية والقبطية وهكذا عمت العربية البلاد التي يعنينا امرها وانقرضت لغاتها القديمة وصارت هذه البلاد تعد بلاداً عربية محضة .

ومما يلفت النظر ما في الشرع الاسلامي من القواعد الاقتصادية القويمة فضريبة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المستغلات مثلاً هي عشر المحصول من ثمار او حبوب اذا كانت الارض تسقى سيحاً اي من المطر والأنهر بلا تعب . اما اذا كانت تسقى بتعب فالضريبة نصف العشر . ومما يدهش ايضاً ان هذه الضريبة (وكانت هي الصدقة او الزكاة باديء بدء) ما كانت تؤخذ الا اذا زاد المحصول على كذا من الغلة اي على المقدار الضروري لقوت الانسان وعياله اما الشرائع التي أبقاها الترك لنا فهي تلزم الفلاح بدفع ثمن المحاصيل عامةً سواء كانت سنته سنة خصب او محل . أفليس يعلم كل منا ان قرية كذا أمحلت في سنة كذا حتى ان زراعها لم يحصلوا على سوى بذارهم ومع ذلك جبت الحكومة التركية حصتها بتمامها من ذلك المحصول الضئيل . ان القاعدة التي ذكرتها كانت تمنع أجدادنا العرب عن مثل ذلك . ومن القواعد الاقتصادية المهمة ايضاً ان الصدقة كانت تتضاعف احياناً بنسبة ثروة الانسان . وهذه القاعدة يسير عليها اليوم كثير من الحكومات الاوربية في استيفاء الضرائب فالذي يكون صاحب ثلاثمائة دينار مثلاً يدفع دينارين عن المائة الاولى وثلاثة دنانير عن المائة الثانية واربعة دنانير عن المائة الثالثة وهكذا تزداد نسبة الضريبة بنسبة ازدياد ثروة المرء وتقل بقلتها . ولم تُفرض الصدقة على الخيل والحمر والبغال لما لها من الفائدة . وكانوا اذا وضعوا العشر او الخراج بالمساحة ينظرون الى بعد الشُقّة بين الارض والمدن فكأن الضريبة تدفع في الارض التي أنتجت المحصول وذلك عدل .

وجاء في الشرع الاسلامي قواعد في استغلال الارض وعمارتها غاية في الحكمة مثل شروط المساقاة والمزارعة وكري الانهار والمجاري واصلاحها وحريم الآبار والقني والانهر وإحياء الارض الموات وإباحة الانهار العامة والبحار والبحيرات والأعشاب والأشجار التي نبتتها الطبيعة والآبار التي لم تحفر بسعي الناس الى غير ذلك مما يدل على بعد نظر في عمارة الارض واستغلالها وعلى براعة في سياسة الشعوب لا ينكرها الا كل جهول او صاحب تعصب ذميم .

يستنتج مما ذكرت اولاً ان العرب في صدر الاسلام أقروا سكان البلاد التي فتحوها على ارضهم ولم يقتطعوا لانفسهم سوى الارض الموات والتي لا صاحب لها . ثانياً انهم وضعوا على الارض ضريبة معتدلة مناسبة مع غلاتها فلما أربت على عشر هذه الغلات . وقد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كانت تبلغ نصف العشر أحياناً . وإن زادت على العشر في بعض الأحايين فما كانت وطأتها شديدة لاستجار العمران ورخاء العيش . ثالثاً انهم وضعوا شرائع زراعية وضع فيها حق كل اكار او رب ارض وامتنع بها تعدي بعض الناس على بعض . فلا عجب بعد هذا ان ينشط الاهلون الى استغلال الارض وعمارة المزارع والقرى وان يبلغ ارتفاع الخراج في الأقطار التي خفقت في ربوعها رايات الدول العربية أضعافه في يومنا هذا مع رخاء السعر في تلك الايام . وقد أسهب مؤرخو العرب في ذكر ما كان يجبى في مختلف الأقاليم ايام الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين في المشرق والمغرب مما لا يمكن ذكره في هذا البحث الموجز . بل يكفي ان أنقل ما جاء في تاريخ التمدن الاسلامي وهو ان ما كان يرد الى بيت المال في عهد المأمون يقدر بنحو ٣٦٠ مليون درهم وكان ينفق منها في مصالح الدولة نحو ٦٠ مليون درهم فيبقى ٣٠٠ مليون درهم اي عشرة ملايين جنيه تقريباً . واذا قلنا عشرة ملايين جنيه في تلك الايام فكأننا قلنا خمسين مليون جنيه في ايامنا هذه . فأي دولة من دول العالم اليوم يفيض في خزانتها هذا المال العظيم . ثم يجب ان يلحظ ان معظم واردات بيت المال كان مصدرها الخراج اي ضريبة محاصيل الارض وفي ذلك أجلى دليل على ما كان للزراعة من الشأن في هاتيك الايام الزاهرة . ولما كان المُلك والمدنية وكل شيء لا يقوم الا بالمال حقّ لنا ان نقول ان الزراعة ومنتوجات الارض هي أكبر عامل في تكوين المدنية العربية الاسلامية بكل مظاهرها . فهي التي جعلت الخلفاء يبنون المدن كبغداد والبصرة والكوفة والقاهرة والرقة ويشيدون القصور والجوامع والمدارس والتكايا وينفقون عن سعة على العلماء والادباء والشعراء والمترجمين ويوسعون على العمال والجنود والشرط لصيانة الملك وإقامة العدل بين الناس .

وكان لارباب الوجاهة والمال عناية باصلاح الري . يدلنا على ذلك مثال ذكره قدامة بن جعفر وهو انه انبثقت بثوق في دجلة ايام الحجاج فلم يثنه اشتغاله في الحروب عن ان يكتب الى الوليد بن عبد الملك يخبرها و بانها تستلزم انفاق ثلاثة ملايين درهم فلما استكثرها قال له اخوه مسلمة بن عبد الملك « انا أنفق على سدها من مالي على ان تعطيني خراج الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد إنفاق المال على ايدي ثقاتك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فرضي الوليد بذلك فحصل له ارضون وطساسيج كثيرة فحفر نهرين سماهما السيبين وتألف الأكرة والمزارعين وعمر تلك الأرضين . وجرى الناس على ذلك الى أواخر بني أمية » .

وكان العباسيون اكثر اهتماماً من الأمويين في شؤون الفلاحة وتعمير القرى والدساكر لاسيما في السواد اي بين دجلة والفرات حيث كان مقر ملكهم فلقد احتفروا الأنهر والمجاري وأقاموا الأسداد وأنشأوا الجسور حتى أصبح مابين النهرين على اتساعه شبيهاً بالفوطتين من حيث اشتباك الأنهار ومجاري الإسقاء . ولدينا مثال أقرب في قنوات سلمية وأطرافها فان التاريخ ينبؤنا بان أرباض سلمية بين حمص وحماة كانت ايام الدول العربية رياضاً غناء تسقى بقني عديدة لم تدع للاعداء أثراً . وقد ردمت هذه القنوات كما انبثقت أسداد دجلة والفرات وردمت أنهارهما ومجاريهما بعد ان ضعف شأن الخلافة العربية وانهال عليها من المشرق برابرته . وكانت خلاصة تقرير السير ويلكوكس المهندس المائي الشهير الذي كانت الحكومة التركية انتدبته لدرس الري في العراق (وقد ترجمته بالعربية) عبارة عن إعادة فتح الأنهار والمجاري وإقامة الأسداد التي كانت ايام الرشيد والمأمون .

وكان سكان الشام والعراق أضعاف سكانها اليوم كما ان سكان مصر كانوا يقدرون بنحو ٢٠ مليوناً . وهذا لا يستغرب . أفلم يكن سكان مصر ثلاثة ملايين منذ اقل من قرن فاذا بهم اليوم نحو ستة عشر مليوناً بعد إن عدل محمد علي وذريته بين الناس وبعد ان أنشأت القناطر الخيرية وسد أسوان وفتحت مجاري الري واكتشف ان القطن الجيد الشعر يألف تربة مصر وإقليمها .

والأشجار والزروع التي كان يزرعها العرب عدد عظيم بل هي كل ما تعرفه في ايامنا هذه الا ما نقل حديثاً من العالم الجديد اي امريكة الى العالم القديم مثل التبغ والبطاطا والفاصولياء وغيرها او نقل الينا من البلاد البعيدة التي استعمرها الاوربيون كالقشطة والنجو والمشمش الهندي وأضرابها . وكان لهم حذق بالتجارب الزراعية واصطفاء الأصناف النباتية الجيدة وتكثيرها ولأنواع المشمش والتين وخلافهما من الفواكه اصناف تعد بالعشرات . ومن البديهي انه لا يقتني أصنافاً عدة كهذه الا الذين يعرفون مزايا كل منها و يعرفون كيف الحصول عليها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وللعرب فضل في نقل كثير من النباتات المفيدة الى اوربا وتعريف الفرنجة بها . ذكر مؤلفو الافرنج انهم العرب هم الذين نقلوا القطن الى الاندلس وصقلية فاقتبس الاوربيون زراعته عنهم . وقالوا ان اول من بحث في القطن فأسهب في زرعه ودوّن ما كان يعرفه فيه المصنفون المصريون والفرس القدماء هو ابو زكريا يحيى بن محمد بن العوام الاشبيلي في كتابه الشهير « الفلاحة الاندلسية » واقتبس العرب من الصينيين زرع قصب السكر واستخراج السكر منه فنقلوهما الى مصر وصقلية والاندلس وهنالك تناولها الاوربيون ولا سيما البرتغاليون ثم نفشت زراعة هذا النبات في اميركة بعد اكتشافها وخصوصاً في كوبة والمكسيك . وذكر اكبر علماء النبات ان العرب هم الذين يرجع الفضل اليهم في نقل معظم أشجار الفصيلة البرتقالية من شرق آسيا ونشرها حول بحر الروم . فالأترج مثلاً مهده الاصلي في الهند وقد نقله العرب منها في القرن الثالث من الهجرة وأذاعوه في البلاد التي امتد سلطانهم عليها . ومهد الليمون الحامض هو في الهند ايضاً وقد نقله العرب الى العراق والشام والمغرب والاندلس فوجده الصليبيون متأصلاً في الشام فنقلوه الى ايطاليا وغيرها . وهكذا يقال في البرتقال والليمون الحلو الا الكباد فاليونانيون كانوا يعرفونه . اما المندرين (يوسف افندي) فحديث وكذا الليمون الهندي او الفراسكين . واخذ الفرنج عن العرب زرع البطيخ والمشمش والخوخ كما نقلوا من مصر والشام الى بلاد الفرنجة عدداً كبيراً من العقاقير الطبية والأبازير والافاويه التي منابتها الهند وغيرها من البلاد الحارة .

وترجم العرب عن اليونانية والنبطية كتباً كثيرة في النبات والحيوان والماشية والزراعة . وأشهر الكتب الزراعية التي ترجمت بالعربية كتاب الفلاحة النبطية الذي تقدم ذكره . وثم كتاب لا بأس به وهو كتاب الفلاحة الرومية لقسطا بن لوقا البعلبكي وأشهر كتاب هو الذي ألفه ابن العوام في القرن السادس من الهجرة وسماه (كتاب الفلاحة الاندلسية) . قال العالم الفرنسي رنجلمان « كان ابن العوام يسكن اشبيلية وكان يجرب تجارب عديدة على جبل الأشرف وليس كتابه معرض فصاحة وبلاغة بل هو مجموعة أجمل الأبحاث والقواعد الزراعية التي كتب فيها الأنباط واليونانيون والرومانيون عدا ما كان يتبع في الاندلس » . وقال العالم الزراعي انطوان باسي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(Antoine passy) في تقرير قدمه الى الجمعية الوطنية الزراعية الفرنسية سنة ١٨٥٩ « ان ما لكتاب ابن العوام من عظيم الشأن لا يقتصر على كونه حاويًا الفنون الزراعية القديمة مع التي تتبع في الاندلس بل لهذا السفر قيمة ثانية وهو انه كشف النقاب عن انه كان للعرب نظرات في الطبيعة والكيمياء لم نكن نرقب وجودها . وهو سفر مملوء بالفوائد يطل بنا في شكل موجز على ما كانت عليه زراعة الامم القديمة ثم ما بلغته بعدها في الاندلس وفي جميع البلاد الاسلامية إبان الفتح الزاهر . وفي الاختصار ان هذه الدائرة الزراعية التي خص بها القرن الثاني عشر من الميلاد هي كاملة » .

يستخلص مما ذكرته عن الزراعة في عهد العرب بعد الاسلام انه حق لأجدادنا الفخر لاحتفاظهم بكثير من علوم الأقدمين الزراعية و باضافتهم تجاربهم وملحوظاتهم اليها مما لا يخلو من فوائد عملية ومن حقائق علمية تقرها عقولنا اليوم . فكما فيض التاريخ هذه الامة الكريمة للاحتفاظ بعلوم اليونان والرومان والفرس والهنود والأنباط في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات وغيرها وذلك في القرون الوسطى يوم لم يكن غيرهم في عالم المدنية فلقد جعلهم ايضًا حفظة العلوم الزراعية بفروعها . وهذه الحقيقة التي لم يكتب فيها احد الى الآن على ما أعلم يجب ان ترسخ في أذهاننا حتى اذا جاء ذكر العرب إبان مدنيتهم الزاهرة نقول بملء فمنا انهم عرفوا ان يحفظوا و يوسعوا كل العلوم المفيدة التي كانت للعالم المتمدن من قبلهم بلا استثناء .

مصطفى الشهابي
عضو المجمع العلمي العربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net